الاستشراق بين دعاته ومعارضيه

أحمد الحسين
الحسكة - سوريا

صالح ، هاشم/ الاستشراق بين دعاته ومعارضيه .- لندن : دار الساقي ، ١٩٩٨م ، ٢٦٠ ص .

صدر هذا الكتاب عن دار الساقي، ويقع في ٢٦٠ صفحة، عرض فيه الباحث المترجم هاشم صالح جوانب مهمة من الجدل الثقافي الذي ينصبُّ في دائرة الاستشراق والمستشرقين .

وفكرة الكتاب تنطلق من ضرورة الاستماع إلى آراء أولئك المستشرقين الذين تعرضت أعمالهم لاتهامات مشرقية ، صدرت منذ الستينات، ولا تزال تبرز بين وقت وآخر .

وقد أعد الباحث هاشم صالح مجموعة من الأبحاث، والمناقشات التي كتبها بعض أعلام المستشرقين، يدافعون بها عن الاستشراق من جهة ، ويردون على ما كتبه أنور عبدالملك في مقالته «الاستشراق مأزومًا» وما طرحه إدوار سعيد في كتابه «الاستشراق» .

وقبل أن يضع تلك النصوص التي ترجمها أمام القارئ، أكد على أن موضوع الاستشراق يثير وجهات نظر متباينة، ولابد من الوقوف على عدة نقاط مهمة قبل الخوض في غمار هذا الموضوع الشائك، والصعب .

١ - لايمكن فهم المناقشة الاستشراقية أو السجال القائم من حولها بين المثقفين العرب من جهة ، والمستشرقين من جهة ثانية، إلا إذا تم وضع هذه المناقشة في إطارها العام من الصراع الكائن بين الشرق والغرب .

٢ - معركة الخطابات الاستشراقية تبدو غير متكافئة بين طرفي الصراع، ولهذا تبدو الخطابات العربية ذات طابع اجتماعي، اتهامي، في حين تبدو خطابات المستشرقين هادئة، باردة، ولكنها متغطرسة، متعجرفة .

٣ - الخطابات الاستشراقية ليست واحدة، وهي ذات منهجيات مختلفة، وفروقات متباينة، وعلى هذا الأساس، لايجوز النظر إليها من زاوية واحدة ولا الحكم عليها بمقياس واحد .

٤ - كذلك الأمر بالنسبة لخطاب المثقفين العرب إزاء الاستشراق، فهو لا يشكل كتلة واحدة ، منسجمة ؛ بل يتألف من اتجاهات متغايرة، وأحيانًا متناقضة .

* فرنسيسكو غابرييلي :

بعد هذه التوطئة يورد الباحث دفاع غابرييلي المستشرق الإيطالي المشهور، ويسوق أفكاره التي دافع بها عن الاستشراق، ومنجزاته، في سياق رده على مقالة أنور عبدالملك . ورأي غابرييلي أن التهمة التي تكال للاستشراق بارتباطه مع الظاهرة الاستعمارية صحيحة في بعض جوانبها، ولكن لا يجوز أن نعمم ذلك على كل المستشرقين الذين كان بعضهم قد سار في ركاب تلك الظاهرة، ولكن بعضهم الآخر كان ينطلق من اهتمامات علمية، لاعلاقة لها بالأهداف والغايات السياسية والاستعمارية .

كما ردّ غابرييلي على التهمة الثانية التي تقول : إن المستشرقين اهتموا بماضي العرب، دون حاضرهم لغاية تهدف إلى تغييب دورهم في الحضارة المعاصرة، ويرى أن العرب أعطوا للحضارة البشرية تراثًا مشرقًا، له قيمة عظيمة، لايمكن نكرانها ولكن دورهم تضاءل في القرون الأخيرة ، ونحن لانزال كما يقول : ننتظر من

الشرق أن ينهض من جديد .

وقد عبر عن موقفه كمستشرق من حضارة العرب وتراثهم، فقال : «إنني كنت دائمًا أشعر بمدى عظمة هذه الحضارة العربية – الإسلامية، ومدى شرفها، وكرامتها بصفتها إحدى المكوّنات الشرقية لتاريخ البشرية ، وإني أرفض هذا التقييم الظالم لأعمال الأجيال المتتالية من المستشرقين، أو المختصين بمعرفة الشرق والذين لايهدفون إلى أي غرض ، أو مصلحة شخصية من وراء ذلك» .

* كلود كاهين :

وهنا يشير كاهين إلى الخدمات التي قام بها المستشرقون في نشر التراث العربي، والتعريف به . ولكنه يعترف ببعض ثغرات الاستشراق التي نجمت عن الظروف التي لازمت القضية الاستشراقية، أو أحاطت بها، ولاسيما الظاهرة الاستعمارية ولكن ذلك كما يقول : لايجوز أن يجعلنا نقع في دائرة التطرف المضاد الذي ينكر كل قيمة للأبحاث التي أنجزت ضمن ذلك المناخ .

ويؤكد كلود كاهين أن على المستشرقين أن يعيدوا النظر في تلك الدراسات التي كتبت من وحي نظرة خارجية، تعيد التوازن إلى الأمور، ويلحُّ من جديد على دراسة المجتمعات الشرقية من داخلها . ويدعو الباحثين العرب ، والمشارقة إلى الاستفادة من منجزات العلوم ، والمناهج الحديثة في دراسة مجتمعاتهم بهدف الكشف عن الجوانب التي قد لايدرك المستشرقون أبعادها، ولايحسنون تصورها .

* مكسيم رودنسون :

لقد خصص هذا المستشرق مقالات عديدة دافع بها عن الاستشراق، وردّ فيها على ما طرحه أنور عبدالملك، وإدوار سعيد من اتهامات للمستشرقين .

ففي مقالته «الدراسات العربية – الإسلامية في أوربا» تحدث رودنسون عن نشوء الاستشراق، والظروف التي أحاطت بتلك النشأة، وأشار إلى مناهج المستشرقين في إطارها التاريخي – الفيلولوجي . ثم دعا إلى تطوير تلك المناهج، وإدخال مناهج جديدة كالألسنية ، والسوسيولوجية، والأنثربولوجية .

وقد اعترف ببعض ثغرات الاستشراق، ونواقصه إذ قال : «لايزال الكثير من المستشرقين سجناء الاستشراق، إنهم منغلقون على أنفسهم داخل غيتو، إن مفهوم الاستشراق ناتج عن ضرورات عملية عابرة، التقى عندها العلماء الأوربيون المتمرسون بدراسة الثقافات الأخرى، وقد تدعم هذا المفهوم بواسطة هيمنة مجتمعهم على المجتمعات الأخرى، وشوّهت هذه الحالة بقوة رؤيتهم للأشياء» .

وفي مقدمة كتابه «جاذبية الإسلام» تعرض رودنسون لما كتبه إدوار سعيد، ويعترف أن قسمًا كبيراً من نقد سعيد يظل صحيحًا في نطاق ما يسمى بالاستشراق التقليدي، ولكنه يأخذ على بعض أفكار إدوار سعيد بأنها تقود إلى دائرة النظرية الجداثوفية، القائلة بوجود علمين متضادين، أحدهما برجوازي، والآخر بروليتاري .

ويعود رودنسون ليعترف بصعوبة الرؤية ، أي صعوبة رؤية الآخر، ويعلل ذلك في كتابات المستشرقين بأن الغرب استعمر الشرق ، وأفريقيا، وشكّل تجاه كل هذه الشعوب نظرة معينة من خلال احتكاكه بها، ومحاولته الهيمنة عليها، ومراقبته لتصرفاتها، وعاداتها، وعقائدها .

* بيرنارد لويس :

كما شارك بيرنارد لويس في الجدل الاستشراقي، فردّ في مقالة عنوانها "مسألة الاستشراق" على انتقادات إدوار سعيد، وبحث في مقالة أخرى عن وضع الدراسات المتعلقة بالشرق الأوسط، والدوافع التي أثرت في سير تلك الدراسات ، وانطلاقها وركّز في هذا الحيز على سوء الفهم الذي حمله الغرب عن الشرق ، وأنه بالتالي المسئول عن بعض الثغرات التي ظهرت في كتابات المستشرقين ، والتي تحكمت في بعض جوانبها